شذرات ذهبية من النصيحة الولدية

الكاتب : سامية البدري

التاريخ : 5 ديسمبر 2015 م

المشاهدات : 5020

وأنت تقرأ القرآن ستجد في سورة لقمان وصية أبٍ لابنه، تستوقفك التربية الإيمانية، فكلما تلوتَها أحسستَ بعِظَم الوصية لما حوته من «أصول الشريعة وهي: الاعتقادات، والأعمال، وأدب المعاملة، وأدب النفس»[1]، تلتمس فيها حنان الأب وشفقته وحرصه على ابنه. وحين تُطالع السنة النبوية تجد نصيحة النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، ولابن أخت زوجته ميمونة رضي الله عنها، وهو غلام، في حديث: «احفظ الله يحفظك»، الذي يقول عنه ابن رجب الحنبلي: «هذا الحديث يتضمن وصايا عظيمة وقواعد كلية من أهم أمور الدين وأجلها»[2]، ويلاحظ على هذه الوصايا أنها كانت مشافهة، إذ العقل حاضر لاستيعابها وحفظها، فأدوات الكتابة آنذاك لم تكن ذات وفرة، ومن رحمة الله بهذه الأمة أن حفظ لها الوحي المبين، وها نحن نطالعها اليوم وكل يوم.

وحيال إطلالة سريعة على الأدبيات التي كُتبت كنصيحة من الآباء إلى الأبناء، تجد أن هناك نصائح عدة مبثوثة في طيات الكتب، وفي كتاب «المنتخب من وصايا الآباء للأبناء» لـ«وائل خلف» تطالعك وصايا الآباء والأمهات للأبناء، وهي في مجملها وصايا إيمانية، وقد دونت شيئًا من وصايا الأمهات للأبناء في مقال سابق عنوانه «الأمومة ميلاد أمة»[3]، كما أن هناك نصائح صُنفت لهذا الغرض في مصنف مستقل، منها «النصيحة الولدية» لأبي الوليد الباجي (ت:474 هـ)، ورسالة «أيها الولد»، تُسمى بـ«الولدية»، للغزالي (ت:505 هـ) وهي موجهة لتلميذٍ له، ولابن الجوزي (ت:630هـ) رسالة كتبها إلى ابنه أبي القاسم لما رأى فيه نوعًا من التواني عن الجد في طلب العلم، و«إلى ولدي» لأحمد أمين، وهي في الأصل سلسة مقالات لمجلة الهلال نُشرت عام 1950م، و«إلى ولدي» لجواد شبر، وهي مجموعة من القطع الشعرية قام بجمعها المؤلف، و«وصايا إلى ولدي» لمصطفى أغا، وهي مجموعة نُشرت في إحدى الصحف، وغيرها.

فمن خلال هذه اللمحة للأدبيات التي اهتمت بالتربية الإيمانية أدركتُ أهميتها، مع إغفالها للأسف في واقعنا حيث تم التمركز حول التربية المادية والرفاهية المفرطة، وبرهان ذلك: الجيل الذي خرج علينا اليوم وهو في ربيع الزهور من عمره يكفّر ويفجّر، في أشرف مكان حيث ينادى بـالله أكبر، في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، حيث يصطف المسلمون في الجمع والجماعات، ألا يدلك هذا على غياب التربية الإيمانية من الوالدين والأسرة؟!

وبرهان آخر انتشار ظاهرة التشكيك في المسلَّمات بين كثير من الشبان والشابات، وإعادة قراءة النصوص من جديد، وعدم التسليم للأحكام الشرعية بدعوى حرية الرأي، مما مهد لظهور الإلحاد، وبرهان ثالث اختلال منظومة القيم والأخلاق لدى

الأبناء من الصغار والكبار، حيث تفشت النزعة الاستهلاكية، والركض خلف الماركات حتى وإن كانت مقلدة! والتنافس على التفاهات، كما تبدى لنا جيلًا يستعرض بجسده على الشاشة المرئية عبر مواقع التواصل يهدف للتفاعل السريع بنقل الحدث مباشرة وهو ساخن!

أختم ببرهان الانسياق وراء البرامج التدريبية والتنمية البشرية التي تحتوي على الممارسات الشركية التي ضجت بها الساحة، وخلبت عقول الأجيال، وما هي إلا مورثات ديانات شرقية، منها دورات «الداوزنج»: وهو التنبؤ بالغيب ومعرفة الأشياء المفقودة من خلال الاستعانة بأحجار معينة انتشرت في الأسواق.. تدريب على الصور الشركية لكنه بحلة جديدة عصرية يتم التسويق لها!

والسؤال: لماذا هذا الانحدار المعرفي العقدي الفطري القيمي للبعض من أجيالنا؟!

ألا يحتاج إلى وقفة من قبل الآباء والأمهات؟!

أليس السبب غياب التربية الإيمانية من الأم والأب؟! أليس السبب غياب الاستشعار بالمسؤولية؟! أليس هو كفرٌ بنعمة الأبناء حيث لم يُشكر الله عليها مع أن هناك من حُرم منها؟! أليس السبب إسناد الأمر إلى غير أهله في التربية حيث تشاغل المسؤول عن رعيته؟! أليس السبب تقلص دور الأسرة حيث غابت الأسرة الممتدة وظهرت الأسرة النووية، وأصبح لسان حال الكثير «تغير الجيل»، و«هذا جيل الإلكترونيات»، مع اقتصار دور التربية على المدرسة فحسب؟!

كثيرًا ما أتجاذب أطراف الحديث مع الأمهات عن وسائل التربية لمشاركتهن في الهم الذي نحمله جميعًا، ماذا قرأنا؟! ماذا تعلمنا؟! هل استفدنا من خبرات أمهاتنا وأجدادنا؟! أتفاجأ بأن ليس ثمت اهتمام بالجانب التثقيفي لأساليب التربية!! وتصفعني الإجابة بـ«هذا الجيل غير»!!

مَن مِنا جلس مع ابنه يعلمه أمور دينه، يحرك الحسّ الإيماني الفطري بداخله، ورسم له خطة تربوية إيمانية تهدف لتنشئته على منهج الحق؟!

لن أغضّ الطرف عن النماذج المشرقة في المجتمع عبر كل عصر وفي كل مصر، التي استشعرت نعمة الوالدية والولد فربت أبناءها تربية إيمانية واعتنت بهم عناية شديدة، وبذلت في ذلك طُرقًا عدّة، منها كتابة النصائح لأولادهم، وهو أسلوب تربوي هادف، وخالد، له أثرٌ عجيبٌ من واقع تجربتي له، فمَن مِن الآباء فكّر فيه ونفذه؟!

ومن ذلك «النصيحة الولدية» لأبي الوليد الباجي، التي سأسطر الحديث عنها من خلال الحديث الموجز عن الوالد للتعرف عليه أولًا، وثانيًا: تدوين بعض الشذرات الذهبية عنها.

أمّا الوالد: فهو أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب التجيبي الأندلسي الباجي، الفقيه المالكي قاضي الأندلس، الأصولي المفسر، من سلالة بيت علم، أحد الحفاظ المكثرين في الفقه والحديث، له مصنفات عديدة في الجرح والتعديل والتفسير والفقه والأصول، منها كتاب «النصحية الولدية»، وأخذ عنه ابن عبدالبر صاحب «الاستيعاب»، وبينه وبين ابن حزم مجالس ومناظرات[4]. هذه لمحة يسيرة عن كاتب الوصية ومكوناته العلمية والفكرية.

الشذرات الذهبية من «الوصية الولدية»:

تقع «الوصية الولدية» في سبع وعشرين صفحة، يُخلد أبو الوليد الباجي كلماته لولديه، وأُلخص منهجه فيها: بأنه يوصي ابنيه بمسألة ثم يدلل عليها، ويحرك الجانب الإيماني فيهما فيذكّر بالآخرة ومراقبة الله تعالى، ولا يُغفل إثارة العقل ليستحثه

على التفكير، كما امتاز منهجه بأنه يقوم على الترغيب والترهيب ولم يقتصر على أحدهما، وهو منهج تربوي مهم للنفس البشرية، ومن مميزات منهجه أيضًا أنه يأمر فيرغب، وينهى فيخوف، فالنفس حينًا تقبل، وحينًا تدبر، فهي بحاجة لمن يوجهها في جميع حالاتها، وهذا هو منهج الأنبياء، ومن مميزات وصيته أنه يهتم بالفرد المنتمي لأسرة ومجتمع وأمة، أي أنه لا يتمركز حول الفرد وحده، ولا يفصله عن مجتمعه، ولا يخضعه له، فالسلطة هنا دينية ليست فردية ولا مجتمعية، فهو يرسم معالم الطريق لابنيه بمنهجية علمية مؤصلة، حيث يقول: «ففيما أرسمه من وصيتي وأبينه من نصيحتي ما إن عملتما به، ثبتما على منهاج السلف الصالح، وفزتما بالمتجر الرابح، ونلتما خير الدنيا والآخرة» (ص2).

تأمل ربطه الدنيا بالآخرة، لم تقتصر على جانب دون آخر، رسمه وفق منهج علمي مبني على الدليل، موضحًا الغاية والوسيلة.

لماذا يدون الأب نصيحته لابنيه؟ يجيب قائلًا: «لا أحد أنصح مني لكما، ولا أشفق مني عليكما» (ص2)، يترجم حبه وشفقته في إسداء النصح لهما، فلم يغلب الجانب العاطفي، بل جعله وسيلة لإسعاد ابنيه.

يبتدئ الأب أولى وصاياه بوصية التمسك بالدين، وهي وصية الأنبياء لأبنائهم: {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} [البقرة: 132] فيقول: «أؤكد عليكما في ذلك وصيتي، وأكررها حرصًا على تعلقكما وتمسككما بهذا الدين الذي تفضل الله تعالى علينا به» (ص4)، هنا يذكّر الأب ابنيه بنعمة الإسلام التي هي من فضل الله على كل مسلم، وهو يذكرنا بقول يوسف الصديق: {وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ} [يوسف: 38]

لماذا الوصية بالإسلام؟ لأنه يرجو اللقاء بهما في الجنَّة «حيث لا نخاف فُرقة، ولا نتوقع إزالة، ويعلم الله تعالى شوقي إلى ذلك وحرصي عليه، كما يعلم إشفاقي من أن تزل بأحدكما قدم، أو تعدل به فتنة، فيحل عليه من سخط الله تعالى ما يحله دار البوار» (ص4).

يا الله ما أعظمه من رجاء، هكذا تربط التربية الإيمانية لقاء الدنيا بالآخرة، أي نعيم هذا الذي لا يكاد يوصف.. يجمعك الله وأولادك وبمن تحب في الجنة دار الخلود حيث اللقاء السرمدي! بالله عليكم من منا فكر في هذا اللقاء وسعى لتحقيقه؟! ألا يحتاج منا معشر الآباء والأمهات لوثبة؟!

كثيرًا ما شُغلنا بالإغراق في التفكير لتوفير كل ما يخلد أبناءنا في الدنيا: مسكن مشرب مأكل ملبس... لم يدر بحسباننا أن نفكر فيما يجمعنا بهم في الآخرة، غابت عنا الغاية الحقيقية، فاكتفينا بالنظر إلى سعادة العاجلة ولم نفكر بالآجلة.

ثم بعد هذا الاستهلال يقسم وصيته قسمين:

الأول منها يختص بـ«الدين» وامتد هذا القسم من (ص5 إلى ص16).

والثاني يختص بـ«الدنيا» وكان الحديث عنه من (ص17 إلى ص27) حيث التعامل مع الآخرين، إلا أنّ لي تحفظًا على تقسيمه، لأنني أجد ما سطره في هذه الوصية كله من أمور الدين حيث لا تنفك حياة المسلم عن التعبد لله تعالى في حياته كلها، وكأني به يريد أن يربي نفوس أولاده أولًا تربية إيمانية، حتى إذا تمكّن الإيمان منهم تعاملوا مع الآخرين وفق ما يمليه عليهم إيمانهم، لا كما تملي عليهم أهواؤهم ويحلو لهم، فالإنسان بطبعه يحتاج لأن يتعامل مع الآخرين ولا بد له من أخلاقيات للتعامل مع الآخرين. الشمولية التربوية في الوصية تُنبي عن نظرة عميقة للمربي حيث يربي الفرد المنتمي للأمة ليبنيها، لا المنفك عنها الذي لا شأن له فيها.

فبدأ بأركان الإيمان التي مبناها على الغيب حيث التصديق والتسليم، ثم بيّن المصدر المعرفي لهذه المسائل، وهو الكتاب والسنة، إذ المسائل لا بد لها من دلائل تبرهن على صدقها ويقينها حتى لا يساور الشك النفس البشرية الضعيفة وليطمئن القلب، ثم بين لهم المنهج الحق للسلف للتأسي به، وبينه في طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم المبنية على المحبة، لتعرف أكثر على سنته، وللانقياد له برضا، ومن الوصايا أيضًا أن تشرئب القلوب محبةً لأصحابه أجمعين رضوان الله عليهم، وبيان فضلهم ومزيتهم على الأمة ليكون المنهج واضحًا أبلجَ لا يتلجلج السالك فيه، ومن الوصايا أيضًا توقير العلماء فهم من يحفظون ميراث النبوة.

وبعد أن بين لهم أصول المسائل وأدلتها وبصرهم بالمنهج انتقل من عمل الباطن إلى عمل الظاهر حيث يترجم الإيمان الذي يسكن في القلب فعل الجوارح، فشرع يذكرهم بأركان الإسلام: «وإقام الصلاة، فإنها عمود الدين وعماد الشريعة، وآكد فرائض الملة في مراعاة طهارتها، ومراقبة أوقاتها، وإتمام قراءتها، وإكمال ركوعها وسجودها» (ص6)، أداء الزكاة «لا تؤخرها عن وقتها، ولا يبخل بكثيرها، ولا يغفل عن يسيرها، وبأوفى وزن، فإنَّ الله تعالى أكرمُ الكرماء، وأحقُّ من اختير له، ولتُعْطَ بطيب نفسٍ، وتيقُّنٍ أنها بركة في المال وتطهيرٌ له، وتدفع إلى مستحقِّها دونَ مُحاباةٍ ولا متابعة هوى ولا هوادة» (ص7)، فهو ينبه بتنحية الهوى بالكلية عند أمر الله.

صيام رمضان «فإنه عبادة السر وطاعة الرب» (ص7)، ثم حج بيت الله الحرام «الحج المبرور ليس له جزاء عند الله إلا الجنة» متفق عليه، الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، يحثهما على السِبَاق لشعائر الإسلام، وألا يضيعا حدود الله، أي أنهما لا يكتفيان بالإتيان فقط بل يحفزّ فيهما الجانب الإيماني، السباق إلى الله تعالى {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133].

هناك من يأتي بأحكام الشريعة وهو يستشعر التكليف بها فحسب، وهناك من يستشعر محبة وعظم من أمر بها ليسارع ويسابق إليها، أليس هذا عاملًا من عوامل الثبات على الدين الحق؟!

ما السبيل لمعرفة ما ذكره سابقًا؟! إنه طلب العلم: «واعلما أنكما إنَّما تصلان إلى أداءِ هذه الفرائض والإتيان بما يلزمكما منها ـ مع توفيق الله لكما ـ بالعلم الذي هو أصل الخيْر، وبه يُتوصَّلُ إلى البرِّ، فعليكما بطلبه؛ فإنَّه غِنى لطالبِه، وعِزٌّ لحامله، وهو ـ مع هذا ـ السببُ الأعظم إلى الآخرة؛ به تُجتنبُ الشبهاتُ، وتصِحُّ القُرُباتُ» (ص8)، وبعد أن بيّن مكانة طلب العلم بدأ في بيان فضله ومكانة العلماء للترغيب فيه، وأن أفضل العلوم علوم الشريعة، ثم يحذرهما من الاطلاع على كتب المنطق والفلسفة ابتداءً، حتى لا يقعا في الشك والريب.. منهج تربوي في القراءة والبحث للتكوين الفكري والتأصيل المنهجي.

ثم شرع في الجانب السلوكي والأخلاقي، الذي لا ينفك عن الجانب التعبدي التوحيدي الذي يتعبد به المرء ربه، فيبدأ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة ولاة الأمر في غير معصية الله، والالتزام بالصدق واجتناب الكذب، وأداء الأمانة، وتتميم الميزان لأن النقص مقت، ثم ينهاهما عن المشاركة في سفك الدماء: «وإياكما والعونَ على سفكِ دمٍ بكلمةٍ، أو المشاركةَ فيه بلفظةٍ، فلا يزال الإنسان في فُسحةٍ مِنْ دينه ما لم يغمِسْ يدَه أو لسانَه في دمِ امرئٍ مسلم. قال الله تعالى: {وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} [النساء: 93]» (ص12).

ولا تقربوا الزنا لأن اجتنابه من أخلاق الفضلاء، وإياكما وشرب الخمر «فبيَّنَ تعالى أنها مِنْ عمل الشيطان، ووصفها بالرِّجس، وقرَنَ الفلاحَ باجتنابِها، فهل يستجيزُ عاقلٌ يصدِّقُ البارئَ في خبَرِه تبارك اسمُه، ويعلم أنه أراد الخيْرَ لنا فيما حذرنا عنه منها أنْ يقرَبَها أو يتدنَّسَ بها» (ص12)، وإياكما والربا «فإنَّ الله تعالى قد نهى عنه، وتوعَّدَ بمحاربة مَنْ لم يتُبْ منه» (ص13)، ولا تأكلوا مال أحد بغير حق وعليكم بطلب الحلال واجتناب الحرام، وإياكما والظلم فإنه ظلمات يوم القيامة،

وإياكما والنميمة «فإن أول من يمقت عليها من تنقل إليه» (ص13)، «وإياكما والحسد فإنه داء يهلك صاحبه، وإياكما والفواحشَ فإنَّ الله تعالى حرَّم ما ظهر منها وما بطَنَ، والإثمَ والبغيَ بغيْرِ الحقّ، وإياكما والغيبةَ، فإنَّها تُحبطُ الحسناتِ، وتُكثر السيئاتِ، وتُبعدُ مِنَ الخالقِ، وتُبَغِّضُ إلى المخلوقِ، وإياكما والكِبْرَ، فإنَّ صاحبَه في مقتِ الله متقلِّبٌ، وإلى سَخَطِهِ مُنْقَلِبٌ، وإياكما والبخلَ فإنه لا داء أدوأ منه، لا تسلَمُ عليه دِيانةٌ، ولا تَتِمُّ معه سيادةٌ، وإياكما وشهادةَ الزُّورِ فإنَّها تقطع ظهرَ صاحبِها، وتُفسدُ دينَ متقلِّدِها، وتُخلد قبحَ ذكرِه، وأولُ مَنْ يَمقتُه ويَنِمُّ عليه المشهودُ له، وإياكما والرِّشوةَ، فإنها تعمي عين البصير، وتحط قدر الرفيع، وإياكما والأغاني، فإن الغناء ينبت الفتنة في القلب، ويولد خواطر السوء في النفس، وإياكما والشطرنجَ والنردَ فإنه شغل البطالين، ومحاولة المترفين، يفسد العمر، ويشغل عن الفرض، ويجب أن يكون عمركما أعزَّ عليكما وأفضلَ عندكما من أن تقطعاه بمثل هذه السخافات التي لا تجدي، وتفسداه بهذه الحماقات التي تضر وتردي، وإياكما والقضاءَ بالنجومِ والتَّكَهُّنَ فإنَّ ذلك لمن صدَّقه مُخرجٌ عنِ الدِّينِ، ومُدخل له في جملة المارقين» (ص14- 16)، جملة من النواهي يبين دليلها وسبب النهي عنها، فالنفوس حينًا تركن للدعة وتميل للهوى فتنحرف، فهو يوجهها للاستفادة من سنوات العمر حتى لا تضيع سُدى.

في القسم الثاني من وصيته ينتقل من الحقوق والوجبات العامة إلى الحقوق والوجبات الخاصة في الأسرة، فيذكِّر الأخ بحق أخيه، ثم يذكر الكبير بالعطف على الصغير، والصغير بتوقير الكبير، مع بيان واجب كل منهما تجاه الآخر، نظرية الواجبات والحقوق الإسلامية المتبادلة وليست المنتزعة قوة وغصبًا، ويحيط هذه الأخوة بسياج النصح لله، ومحبة الخير لكل منهما، وغرس الإيثار، والتعاطف والتواصل لنيل رضا الله، ثم ينهاهم عن جملة من الأخلاق التي تفسد عليهم دينهم ودنياهم وعلاقتهم الاجتماعية: «إياكما والتنافسَ والتقاطعَ والتدابرَ والتحاسدَ» (ص18)، وهو يمحض لهم النصيحة في بذل المعروف من قبل ومن بعد، «مَنْ أسدى منكما إلى أخيه معروفًا أو مُكارمةً أو مُواصلةً، فلا ينتظرْ مُقارضةً عليها» (ص18)، وحتى إن نسي أحد أبنائه وصيته ولم يعمل بها، فأخطأ في حق أخيه، فالآخر يتلافى تلك الإساءة بتمسكه بوصية أبيه، والصبر على أخيه، والرفق به.. يحرك جميع البواعث النفسية في نفوس أبنائه، تارة بتذكر وصية الأب الذي يحوز في قلبك على مكانة علية وله حق السمع والطاعة في غير معصية، وأخرى بوجوه البر والإحسان، وثالثة يذكره بالعاقبة «فإنه يُحمد عاقبة صبره، ويفوز بالفضل في أمره»، ثم يؤكد على الاجتماع والاتفاق ونبذ الفرقة، وتتسع النصيحة الوالدية لتشمل أفراد الأسرة من ذوي القرابة، فيوصي ابنيه بصلة أرحامهما، وتعهدهم بالزيارة وتفقد أحوالهم المادية والمعنوية، وقضاء حوائجهم، دون أن ينتظروا جزاء أو شكورًا، فإن هذا مفسد لعلاقتهم، ثم تنتقل الوصية الوالدية إلى الجار، بحفظه وكف الأذى عنه وبستر عورته، والصبر عليه، مبينًا حقوق الجار بالقرب وبالنسب، ثم يوصيهما بصلة أصدقائه، فمعاني الوفاء تتجلى حتى بعد رحيل الأب.

ويذكّر بوصايا قلبية يحتاجها الإنسان ليقوى على عبادة الله ومواجهة الأزمات بروح المؤمن بالتوكل على الله تعالى وتفويض الأمر إليه، والاستعانة بالدعاء في البأساء والضراء، «فإن الدعاء سفينة لا تعطب، وحزب لا يُغلب، وجند لا يهرب» (ص21)، والاستمرار على الدعاء مع إحسان الظن بالله «فالذي ألهمكما إلى الدعاء ووفقكما، لا بد أن يُحسن العاقبة لكما، وقد نجاكما بدعائكما عن الكثير، وصرف به عنكما من البلاء الكبير» (ص21)، ويلفت انتباه ابنيه إلى شكر الله على نعمه، وأن يجعلاها عونًا على طاعته، وسببًا لعبادته، ويحذرهما من كفر النعمة وجحودها ونسبتها إلى غير الله تعالى.

ثم يأتي بجملة من الوصايا في علاقة أولاده بولي الأمر: طاعته في غير معصية، وعدم الخروج عليه، «إياكما والتعريضَ للخلاف لهم، والقيامَ عليهم، فإنَّ هذا فيه العَطَبُ العاجل، والخِزيُ الآجلُ، ولو ظفَرْتُما في خلافِكما، ونفذتُما فيما حاولتما، لكانَ ذلك سببَ هلاكِكما لِمَا تكسبانِه مِنَ المآثِم، وتُحدِثان على الناس مِنَ الحوادث والعظائم» (ص22- 23).

يحرص أبو الوليد في نصح ولديه في كل الأحوال مع كل الأشخاص، إنه يربي الابن الذي ينتمي إلى أسرة وأمة، إنّه يحمل همًّا رساليًّا في تربية ابنيه.. يا الله ما ذا لو حمل كل أب وأم الهم الرسالي؟!

ثم يذكر وصية لقمان لابنه مخافة أن تُفقد وصيته، فتُنسى، احترازًا منه وتحسبًا لأي ظرف يخل بتلك الوصية، وحرصًا على إيصالها بكافة الأساليب، يا الله على حرصه وشفقته ورحمته بابنيه.

ويختم وصيته بالتوكل على الله في تربيته الإيمانية لولديه، «وإنّي لأُوصيكما، وأعلمُ أنّي لن أُغنِيَ عنكما مِنَ الله شيئًا. إنِ الحكمُ إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلونَ، وهو حسبنا ونعم الوكيل» (ص26)، وهو يذكرنا بموقف نبي الله يعقوب مع بينه حين قال لهم: {وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [يوسف: 76]، وكأني بخاتمته يوصي فيها كل الآباء والأمهات بالتوكل على الله في تربية أولادهم، وهذا ما نغفل عنه أحيانًا.

إنَّ الوصية الولدية على أهميتها إلا أنها لم تحظَ بالاهتمام من جهة التربية الوالدية وأثرها على الأولاد، تعلمًا وتعليمًا وشرحًا وتوجيهًا، وقد شُرحت[5] وكُتبت لها وقفات[6]، وهو شرح لمسائلها، أي أنها ابتعدت عن الهدف التربوي الذي لأجله وضعت الوصية.

إنَّ كل ما أتمناه أنْ تُفعّل هذه الوصية تربويًّا داخل كل أسرة، ويُخطب بها على المنابر، ويُشار إليها في محافل مجالس الآباء والأمهات التي تعقدها المدارس، وتُعقد لها دورات تربوية للوالدين تُستل مادتها من الوصية، ويلزم كل أم وأب بحضورها كالدورات التي تعقد للزوجين، فتربية الأبناء مسؤولية. لماذا تكثر حالات الطلاق؟! لأن الزوجين لم يؤهلا؛ جميل، لكنّ ثمت سببًا حقيقيًّا يقف خلف هذا وهو التربية!! فيتمدد الخلل دون أن ننتبه له ونقف عليه، ونجتثه من جذوره.

من خلال التربية الإيمانية سيخرج لنا جيل منتج واعٍ متمسك بدينه، معتز بهويته، يبني مستقبل أمته ولا يأكله، ولا يرقص على جراحها، ولا يتكهن لمستقبله، ولا يسلم عقله لغيره ليتحكم به، يفكر ولا يكفر، يحلل ويدلل، ويتعلم ويُعلّم، يترك أثرًا قبل وبعد رحيله، ولنا أن نتأمل عِظم أثر التربية الدينية في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ» متفق عليه، وفي هذا يقول ابن تيمية: «المراد بالحديث أن الأبوين يلقنانه الكفر ويعلمانه إياه، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأبوين لأنهما الأصل العام الغالب في تربية الأطفال، فإن كل طفل فلا بد له من أبوين وهما اللذان يربيانه مع بقائهما وقدرتهما»[7]، وهذا بخلاف المنظمات الدولية الغربية التي تسنّ المواثيق لإحداث هوة سحيقة تفصل الآباء عن الأبناء من جهة الدين، لتعطي الابن حرية اختيار دينه، ولا تجعل للأب أي سلطة على الابن، ولنا أن نتصور مدى التشتت الذي يهدم الأسرة من جذورها ليفككها، ويسعى في تقويضها بشتى الطرق، وهذا ما نبه إليه غوستاف لوبون حين عدد ما تتمتع به شعوب الشرق بخلاف شعوب الغرب، حيث يقول: «تتمتع شعوب الشرق بما خسرناه من التماسك، فمعتقدات هذه الشعوب لا تزال قوية، وتحافظ أسرها على استقرارها القديم، وبقيت مقومات المجتمعات القديمة، كالديانة والأسرة والنظم والتقاليد والعادات، وهي التي أصابها في الغرب من الهدم ما أصابها، مؤثرة في الشرق مسيطرة عليه، وليس على الشرقيين أن يفكروا في تبديلها»، ويقول أيضًا: «ما بين الشرق والغرب من الاختلاف عظيم إلى الغاية، ويبلغ من عظمه ما يتعذر معه اعتناق أحدهما لمبادئ الآخر وتفكيره»[8].

أختم بأنه لابد من أن يعود للأسرة دورها، وهذا لن يكون حتى يدرك الآباء والأمهات دورهم الحقيقي في التربية، وألا تقتصر على الجانب المادي وحده، فلا بد من الجانب الإيماني، والتوازن بينهما مطلب ملح؛ «فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته».

---

[1] التحرير والتنوير، لابن عاشور.

[2] جامع العلوم والحكم لابن رجب، وله رسالة بعنوان «نور المقباس في فوائد حديث ابن عباس».

[3] http://www.alukah.net/social/0/74796/

[4] ينظر للترجمة: «الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب» لابن فرحون ص76، و«طبقات الحفاظ» للسيوطي (1/98)، و«شذرات الذهب في أخبار من ذهب» لعبدالحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي تحقيق عبد القادر الأرنؤوط ومحمود الأرناؤوط (3/ 345)، و«مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان» ص446، و«طبقات المفسرين» لأحمد بن محمد الأدنروي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي ص131.

[5] شرحها الشيخ صالح السحيمي حفظه الله: https://www.youtube.com/watch?v=OAZVsYN1KlE

[6] قراءة في وصية أبي الوليد الباجي د. فيصل العزاوي: http://www.alukah.net/culture/0/38836 /

[7] درء تعارض العقل والنقل.

[8] حضارة العرب.

المصادر: